نظرات في ديوان:

القدس في العيون

بقلم: محمد فؤاد محمد
مصر

يعود تاريخ «القدس» «بيت المقدس» إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، حيث بناها «اليبوسيون» وسموها «يبوس»، وهم عرب نزحوا من شبه الجزيرة العربية، واستوطنوا أرض كنعان، وسموا بالكنعانيين، وظلت المدينة خاضعة للعرب الكنعانيين و«اليبوسيين» إلى أن غزاها العبرانيون عام ١١٨٦ق.م، ولكنهم فشلوا في السيطرة عليها، وظلوا محاصرين في وادي الأردن يتعرضون لهجمات العرب «الكنعانيين و«اليبوسيين».

وفي عام ١٠٠٠ق.م فقط وبعد هذا التاريخ العربي الطويل استطاع «العبرانيون» السيطرة على المدينة، وكوّنوا مملكتين «يهودا» في «القدس» وإسرائيل في «السامرة»، وقد قامت بينهما حروب وفتن، فهب العرب البابليون لنصرة إخوانهم العرب في فلسطين فسقطت ممالك اليهود على أيدي العرب البابليين، وحملوهم أسرى إلى أرض العراق، وعادت القدس عربية كما كانت عام ٦٠٠ق.م وسكنها في ذلك الوقت «الكلدانيون» و«الآشوريون» و«الكنعانيون» العرب.

وحين غزا «الفرس» أرض بابل عام ٥٣٩ق.م ساعدوا اليهود في الرجوع إلى فلسطين مرة أخرى، إلى أن جاء الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٣ق.م واستولى على القدس، وأزال الوجود اليهودي مرة أخرى.

وفي عام ٢٣ق.م تغلب الرومان على «السلوقين»، واستولى ملكهم «بيموبيس» على «القدس» عام ٢٠ق.م إلى ٤ق.م وأعاد بناء هيكل سليمان الذي هدمه «نبوخذ نصر» عام ٥٩٧ق.م.

وبعد الميلاد تعرضت «القدس» لهجمات الرومان فهاجمها الحاكم الروماني «هدريان» عام ١٣٦م وأقام عليها مدينة «إيليا».

وظل الصراع بين «الفرس» و«الروم» قائماً على المدينة حتى ٦١٤م إلى أن جاء الفتح الإسلامي عام ٦٣٨م ودخلت القدس حوزة الإسلام والعرب من جديد دون قتال أو إراقة دماء، وذهب سيدنا «عمر بن الخطاب» بنفسه وتسلم مفاتيح المدينة وأمر ببناء مسجد في صدر ساحة الأقصى فبُنيَ في عصر الخليفة الأموي «عبد الملك ابن مروان» المسجد الأقصى ثم مسجد قبة الصخرة.

هذه ومضات تاريخية تبرهن على أن القدس عربية منذ القدم، إسلامية بالفتح الإسلامي.

بعد هذا المدخل التاريخي نتصفح ديوان «القدس في العيون» للشاعر كمال رشيد، والذي صدر ضمن سلسلة «نحو أدب إسلامي عالمي» عن دار الوفاء بالمنصورة.

وقدم للديوان الدكتور عماد الدين خليل الذي أولى الأدب الإسلامي اهتماماً كبيراً، تنظيراً وتطبيقاً، ولم يدخر جهداً في إبرازه وتقديمه في صورة مشرقة وثوب فني رفيع المستوى.

وقصائد الديوان بعد انتفاضة عام ١٩٨٧م، والقليل منها جاء قبل ذلك، وكان يؤذن برؤية مستقبلية.. «فمن حنايا الضلوع ومن أعماق القلب ومن التكوين الذاتي كله تأتي هذه القصائد قوية حية ندية لتلج قلوباً تشبهها وتحسن استقبالها..»(١)

والشاعر يبارك يوم تفجّر الانتفاضة ويمجده، ويجعله عنواناً لقصيدة، وتاريخاً لأمل، وعرساً للمجاهدين، ففي قصيدة بعنوان «٨/١٢/١٩٨٧»(٢) يقول: يا تاريخ الأهل الصاعد / أنت العرس لكل مجاهد / فيك تقدم طفل القدس يحدو الركب لهذا العرس/ فهو القائد / وهو الشاهد».

يختم الشاعر قصيدته التي تزخر بموسيقاها الراقصة لتناسب فرحته بهذا الجيل الصاعد بقوله: «بعد الظلمة يأتي الفجر».

والظلمة هنا ظلمة الاحتلال، ظلمة الوضع الراهن الذي يبعث على الملل والإحباط ويساعد على انتشار الشائعات المثبطة فيقول الشاعر في قصيدة «ثورة الحق».(٣)

قيل غاب الإسلام ضاع سناه
وبنوه.. توزعوا في البعيد
قيل إن «الحاخام» يحكم أرضا
باركتها السماء في التلمود
قيل إنا في ضفة الخير متنـــا
وقعـدنا يـا ويح كل قعيد
قيل مات القديم لم يبق منـــه
غيـــر ذكـر مدثر بالجمود

وهذا يعادل طرف المعادلة الأول «الظلمة» ثم يأتي بعد ذلك قوله:

فانتفضتم من كل وكنة طير
وزرعتـــم أقدامكم كالحديد

ليعادل الطرف الثاني في المعادلة «بعد الظلمة يأتي الفجر».

بعد الظلمة يأتي الفجر

ونستطيع هنا أن نجد علاقة بين انتفاضة الطيور من وكناتها وبين الفجر الذي تنبعث فيه الطيور من سباتها وتتحرك بعد سكون وتنطلق بعد قيد، وتغرد بعد صمت، كما
غرد الطفل في
ذلك العرس المشهود.

وبعد أن تنكشف الظلمة ويزداد الأمل وتتسع مساحة النور ويسفر فجر الحق وتبدو أماراته يعلن الشاعر بثقة في قصيدة «الآن»(٤)

الآن أعلن حبي أيها الناس
ولا يساورني وهم ووسواس
الآن أخفض رأسي للألى رفعوا
رأسي وما بسواهم يرفع الراس
كانوا يظنون أنا أهل نجدتهم
وإذ بنا لقعود الدار حراس
هم الصغار ولكن عز شأنهم
هم الفدى والردى والعزم والباس
وهذا الفداء وذلك العزم متصل بالله وبرحمته:
ووزعتهم يد الرحمن مكرمة
في كل شبر، كما تنبتّ أغراس
في ظلمة الظلم في ليل النوى طلعوا
وإذ بهم في دجى الظلماء نبراس

ألا ترى أن معادلة الظلمة والفجر تنتشر بحدودها ومعاملاتها خلال الأبيات؟ ولذلك كانت الأنفاس المعدودة في الفجر كأنها عمر طويل وهي خير من

سنوات في الظلمة:

شدوا على صهوات المجد وانطلقوا
على العدى نفروا، والعمر أنفاس
لا تعجبوا. إنهم أحفاد من بلغـوا
آفاق هذي الدنا، والعرق دساس

وينطلق الشاعر في قصيدته وكأنها أغرودة من أغاريد النصر، أو تغريدة من تغاريد الطيور الطالعة المنبعثة في الفجر:

قولوا معي إن نار القدس طالعة
وإن عزم بنيها ليس ينقاس
وإن مسرى رسول الله ليس لقى
وإن فتيتها في الحرب ما خاسوا
وإن خير تراب الأرض تربتها
بعد «الشريفين» إن القدس أقداس
وإنها النار إن مُسَّتْ كرامتها
وإنها في الرضا نورٌ وإيناسُ

وهكذا في نهاية القصيدة نرى «الرضا» ينتشر و«النور» يعمّ والإيناس يغلّفُ الجو العام ويبعث السكينة فيتلاشى ما دون الرضا والنور والإيناس من معادلة «الفجر» التي ذكرناها، يتلاشى معنىً ولفظاً.

تصعيد وتصعيد

ويصعّد الشاعر من عملياته الإبداعية مثلما يصعّد فتيان القدس عملياتهم، وترتفع رايات شعره كما ترتفع راياتهم، ويكبر أمله فيقول في قصيدة بعنوان: «الحمد لله»:(٥)

الحمـد للـه أن الجهـد يتسـع
وأن راياتنا في القدس ترتفع
وأن أطفالنا في القدس قد كبروا
وأنهم من لبان المجد قد رضعوا

ودائماً الإنسان مولع بحب الأطفال، مستبشر بتصرفاتهم يندهش لأفعالهم.. فكيف إذا كانت الأفعال دفاعاً عن أرض وعن عقيدة، وعن قيم متوارثة وعن كرامة:

أطفال «غزة» ما لانوا ولا جبنوا
صغار «نابلس» ما خاسوا وما خضعوا
كالنبع يخرج في الجدباء يُمرعها
كالنور يطلع في ليل فينقشع
كثر وإن نقصوا في كل معركة
كالذر من جنبات الأرض قد نبعوا
وهم ثبات وإيمان وتضحية
وهم مع البأس في أوطانهم زرعوا

وتأمل معي هذا الجو الذي يغمر القصيدة «نبع يخرج في الجد باء» و«إمراع» و«نور يطلع» فتزدهي وتزدهر على ضوئه الخضرة التي تنتشر في مساحات بصرية يوحي بها جو القصيدة فكل نبع – دائماً – تتبعه خضرة والخضرة تحتاج للضوء والنور لتؤدي دورها وتقوم بعملياتها.

ومكانة «القدس» و«فلسطين» تنتشر خلال الديوان وتضرب بجذورها في أعمق أعماق الشاعر ووجدانه بل وجدان الأمة، فهي تاريخ.. وعقيدة حضارية وأرض.. يقول الشاعر في قصيدة «أطفال الحجارة».(٦)

هي القدس والأقصى ومسرى «محمد»
بهـا بـركات اللـه واللـه قـالها
فلسطين تاريخ ودين حضارة
وأرض وشعب، هل عرفتم جَلالَها؟
وحين أناخ الناس.. ألقوا رحالهم
إلى الظلـم والسلم الذي رَتَّبُوا لها
تناثرت الأحجار من كل جانب
على الظالم الباغي يجوس خلالها
وماذا يعيب الطفل إن هو لم يجد
سـوى حجر يرمي به من أتى لها؟
ألا يا صغار «القدس» صرتم فوارساً
وثـورة أهل الأرض صـرتم نبالها

ومازال الشاعر في ميدانه الإبداعي يقطر إبداعاً..

• يُصعّد الشاعر عملياته الإبداعية مثلما يصعد فتيان القدس عملياتهم.

● مكانة القدس وفلسطين تضرب بجذورها في أعماق الشاعر ووجدان الأمة

يتفاعل مع الموقف لحظة بلحظة ويعبر بالصورة الموحية ويرسم الحركات وينتقي ألفاظه بدقة وعناية تناسبان الموقف الشعري وجلال الحدث، ولاحظ هذه الألفاظ:

همٌ شمّاء.. قعساء وكذلك: كرٌّ.. وفرّ.. وإقدام.. وتضحية.. وشهادة.. وجنات وأنهار.. ونور.. ونار كل ذلك يلوح في قصيدة «الله أكبر».(٧)

ماذا أقول لكم؟ في القدس أخبار
كأنها في عيون القوم أقدار
في القدس نار على الأعداء نازلة
وفي أيادي بنات «الرام» أحجار
وفي المخيم أطفال لهم همم
شماء.. قعساء فيها النور والنار
شبّوا على الطوق ردوا الظلم وانتفضوا
فهم على الظلم والعدوان ثوار
وإن يموتوا فموت العز غايتهم
هو الشهادة جنات وأنهار

ثم يأتي بيت القصيد - كما يقولون:

الأرض أرضكم والقدس قدسكم
والنصر شأنكم والدهر دوّارُ

والشاعر يعيش غريباً عن وطنه يحمل شوقه وادّكاره هذا الادّكار وذلك التذكر والحنين الذي يختلج في قلب الشاعر المشحون بذكرياته وبالومضات التاريخية مثل «بدر» و«حطين» وبما تحمل هذه الألفاظ من معان وأحداث ومؤثرات وبما تستجلبه من صور، وهذا ما نحسه في قصيدة «نحالين»(٨)، وهي بلدة فلسطينية.

يا فلسطين، والحياة ادّكار
طال شوق ولجّ فينا الحنينُ
نحن في البعد ما بعدنا وفينا

نحو قدس الهدى ترفُّ عيونُ
وعلى الأفق تنجلي ظلماتٌ
تطلع الشمس يفرح المحزونُ
ونعيد التاريخ عزماً قوياً
فيه «بدر» وأختها «حطينُ»

الطفل الفلسطيني هو بطل الديوان - إن جاز التعبير - فهو لا يعرف اليأس وقد حرر نفسه من مخاوفها، واقرأ هذا الإيقاع المتناغم الذي يخاطب الشاعر به طفل فلسطين من قصيدة «يا طفلنا»:(٩)

علّمتنا يا طفلنا الدرسا
ذكّرتنا من قبل أن ننسى
أنّا لنا أرض قد اغتصبت
أن اليهود استوطنوا القدسا
وقد استطابوا العيش في رغد
وبها أقاموا الحفل والعرسا
أيقظتنا من بعد ما خدرٍ
أحييت فينا العزم والبأسا
ولقد رفعت الصوت في ثقة
من بعد ما كان الندا همسا

جسد الشاعر المأساة وشخّص الداء

أما في قصيدة «الترس والمجداف»(١٠) فقد جسد الشاعر المأساة وشخص الداء، ولمس الجرح وأمسك بيديه الخيط بطريقة شعرية حيث يقول:

نم يا فؤادي فما يجديك تسهيد

والسعد لا يشترى والعمر محدود
نام الخليون لا جرح، ولا أرق
ولا فراق ولا قتل وتشريد
ولا بلاد عدوّ الله يحكمها
ولارقاب عليها السيف ممدود
عجائب العيش أن البوم في وطني
طير جميل له ريش وتغريد
منه البشائر تأتي كل آونة
وطائر السعد في الأغلال مصفود

ولا ينسى الشاعر أن ينسب الفضل لأهله ويشيد بأطفال فلسطين فيقول:

أطفال غزة يا سعياً ويا أملاً
لكم يطيب الندا تحلو الأناشيد
أنتم لنا الترس والمجداف فتيتنا
بكم عرفنا بأن الخير موجود

البعد التاريخي في الصورة الشعرية

وثمة البعد التاريخي في الصورة الشعرية، والتاريخ بما أنه شخوص وأماكن وصراع وذكريات[11] يبدو مجسماً بشخوصه وعلاماته وأيامه ووقائعه فهو علامات بارزة، وسطور منقوشة ومعين لا ينضب يمتاح منه ويمتار من يبحث عن القدوة والعزة والمجد، ونرى ذلك في قصيدة «رايات وشامات»:[12]

«يرموك» «حطين» شامات وألوية
و«عين جالوت» مثل الكوكب الساري
حي المنازل في الغور العتيق وقل:
بوركت من تربة حفّت بأنوار
فيك الصحابة شاموا كل مكرمة
شادوا البطولات في عزم وإصرار
وسطروا صفحات المجد مشرقة
وحرروا قدسنا بالنور والنار
«أبو عبيدة» من في الناس يجهله؟
و«شرحبيل»، «معا»، رَكْبُ أخيار

فالشاعر بعد أن يجعل التاريخ يسعى ويتحرك، ويتقدم ويتأخر، ويطل من هذه الموقعة أو تلك، أو في صورة هذا الشخص أو ذلك، يبدأ في رصد الواقع المؤلم فتحدث المفارقة وتبدو الصورة واضحة في وجود «الضد» و«المقابل» فيقول في قصيدة بعنوان «سعد».[13]

أقبل فأنت المرتجى، سعد
إن البنـــاء يكـــاد ينهدُّ
أقبـل فخيـل الروم عاديةٌ
وخيـولنا أزرى بها القيدُ
نامت فوارسها وما برحت
مربوطة في القيد لا تعدو
وبيارق النصر القديم غدتْ
مطـوية إذ ودّع الأُسْـــدُ

ويستطرد الشاعر في ذكر التداعيات التي ألمت بالأمة ثم يخص القدس:

والمسجـد الأقصى يؤرقـه
هذا العقوق يسوؤه البعدُ
والصامدون هناك طال بهم
ليل الأسى أضناهم الوجدُ
يا سعد أقبل نحن في خدر
والأفـــق لا برق ولا رعد

لكنّ دفقات النور ووثبات الأمل تجعل الشاعر يقول:

يا قوم لست مقنّطاً أبداً
أملـي كبيـــر ما له حد

وكما مرّ بنا في أجواء القصائد «دماء.. وشهداء.. وصـــراخ.. وذهاب وإياب.. وتبـادل بالحـجـارة والرصـاص..، وتداخل رؤيوي بين الحاضر والماضي والمستقبل.. تبادل في الأماكن والأزمان.. وينادي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويطلع «سعد» وينطلق خالد على فرسه يتبعه صلاح الدين وتبدو مكة المكرمة في جانب ما[14]، فيقول الشاعر في قصيدته «من وحي مكة».[15]

من وحي مكة جاء الدمع هتانا
حرّاً نقياً يزيد القلب إيمانا
والشعر أينع في قلبي وأسعفني
فكان سيفاً وأشواقاً وريحاناً

ثم يتذكر الشاعر قضيته فيستثمر هذا التجمع الإيماني الكبير ليشاركوه مشاعره:

يا من يطوف ببيت الله معتمراً

القدس طاف بها حقد وأردانا
ولم يوقّر «صلاحَ الدين» فاتحها
ولم يُقم لخطى «الفاروق» حسبانا
حضارة السنوات البيض هدّمها
فكراً وأرضاً وإنساناً وبنيانا

ثم يقول:

يا قدس تُقنا إلى الرايات نلثمها
وكيف لا يعشق الإنسان أوطانا
يا حبذا «جبل الزيتون» من جبل
وحبذا أهله أهلاً وإخوانا

وكما تشوّق «الشاعر العربي» إلى جبل «الريان»: «وحبذا ساكن الريان من كانا»، نرى شاعرنا يتشوّق إلى جبل الزيتون في فلسطين التي نشأ فيها، وطعم من زيتونها وقد حرم منها ومن ترابها ومن زيتونها..، ولذلك يحاول رسم خرائط لبلاده يتوهمها ويتخيلها وهو مولع برسم هذه الخرائط فيقول في قصيدة «الخريطة»

أرسمها في العام ألف مرة
أعيّن السهول والبحارْ
وأرسم الموانئ الكبيرة
حيفا ويافا عسقلان
عكا وغزة
كلها شامات مجد في جبين الغالية
والقدس فيها القلب والحب ونور الحق يصعد للسماء
والقدس مفتاح الحضارة، مجمع الشهداء والعلماء من كل العصور
لم يبق لي إلا التفنن في الرسوم وفي الخرائط
لكنني علقتها في القلب لا في صدر حائط».

توازنات شتى في الديوان توازنات شتى في أكثر من اتجاه

نستطيع أن نلحظ في الديوان توازنات شتى في أكثر من اتجاه، فهناك توازن بين الذات والموضوع، وبين الخاص والعام..، وهناك توازن ثانٍ في البحور بين بطيء وسريع..، وثمة توازن ثالث في المعمار الشعري بين عمودي وحر..[١٧]، فقد احتوى الديوان على ثلاث عشرة قصيدة من الشعر التفعيلي «الحر» وسبع وعشرين قصيدة من الشعر المقفى «العمودي»، وقد جاءت القصائد «المقفاة» أعمق، من حيث الصورة الشعرية مصوغة بشاعرية تامة، منها في الشعر «التفعيلي»، باستثناء قصيدتي «الخريطة» و«زرقاء اليمامة» من الشعر التفعيلي. وقد تنوّعت بحور القصائد وتوزع النغم مما أعطى مساحة أوسع للتناغم الموسيقي مع الحالة الشعرية، فمثلاً البحر «البسيط» تسع قصائد و«الرمل» ست قصائد، و«الكامل» إحدى عشرة قصيدة بين «تام» و«أحذ» و«مجزوء»، وقصيدتان لكل من «المتدارك» و«الوافر» و«الخبب»، وقصيدة واحدة لكل من «الطويل» و«الرجز» و«المتقارب».

وهكذا لمسنا في الديوان التنوع والتوازن.. والتناغم والأصالة.

الهوامش

١- الشاعر ص٢٥
٢- الديوان ص٢٩
٣- الديوان ص٢٧
٤- الديوان ص٣١
٥- الديوان ص٣٨
٦- الديوان ص٤٣
٧- الديوان ص٤٥
٨- الديوان ص٤٩
٩- الديوان ص٥١
١٠- الديوان ص٥٤
١١- مقدمة الديوان ص٢٠
١٢- الديوان ص٦١
١٣- الديوان ص٦٣
١٤- المقدمة ص١٢
١٥- الديوان ص٦٥
١٦- الديوان ص٩٣
١٧- المقدمة ص١٣